**رواية بعنوان: قلوب صغيرة على القهر**

في ليلة مظلمة وممطرة، ولدت مرح في قرية صغيرة تختبئ في أعماق جبال بعيدة، كانت الابنة الأولى لوالديها اللذان أحباها حباً جماً منذ ولادتها، كان والدها يعمل ليل نهار من أجل توفير احتياجات المنزل ومتطلبات طفلته مرح، كان الحنان واللين والحب هو السمة الأولى التي تتسم بها حياتها مع والديها.

بعد عامين أنجبت والدة مرح طفلاً جديداً سيكون شقيقاً لمرح وأنيساً لها في حياتها، يتقاسم معها حب والديهما وحنانهما، ومع صرخة الحياة الأولى قرر والده أن يطلق عليه اسم (يحيى) حتى يستمد القوة من اسمه ليحيى تلك الحياة بما فيها من حلاوة الأيام ومرارتها.

في عمر السبع سنوات، كانت مرح طفلة بريئة ومليئة بالحيوية، وكان شقيها يحيى الذي يصغرها بعامين رفيقها في كل شيء وشركها في شقاوتها وبراءتها، كل يوم يستقبلان والدهما عند عودته من العمل بكثير من الحب والفرح وينعمان بفيض الحنان الذي يدره عليهما.

ومع أن الحياة لم تكن سهلة للغاية على عائلة مرح إلا أنها كانت تتمتع بأسرة محبة تكرس كل جهودها لرعايتها وحمايتها، فقد كان والدها السيد (يوسف) رجلاً طيب القلب وكريمًا، يعمل بجد ليؤمن لأسرته الحاجات الأساسية والحياة الكريمة الهانئة.

عاد الأب ذات يوم من العمل والابتسامة تعتلي وجهه السمح، ودخل منزله في هدوء وكان أطفاله نيام، واستقبلته زوجته الودود السيدة (مروة) بصدر رحب وابتسامة حنونة، فقرر أن يبشرها تلك البشارة:

**يوسف بفرح**: قررت الإدارة اليوم مكافأتي على جهودي المتواصلة في العمل ومنحي مكافئة مالية جيدة جداً

**ردت مروة بدهشة**: حقاً؟ الحمدلله على كرمه، أنت تستحق ذلك يا زوجي العزيز

**ابتسم يوسف ابتسامة واسعة ثم قال**: سوف أشتري لأولادنا غرفة أطفال جميلة وما يتبقى من المبلغ سوف نذهب به أنا وأنت إلى مكان جميل جداً.

**تساءلت مروة**: إلى أين يا ترى؟

**يوسف ببهجة**: سنذهب لأداء العمرة سوياً، هذه مكافئة صبرنا وجهدنا يا عزيزتي

استعد الأبوان يوسف ومروة لرحلة الذهاب إلى العمرة وقررا ترك صغارهم مرح ويحيى عند بيت عمهم لحين العودة.

وبعد أيام حدثت كارثة لا تُصدق تغيرت على أثرها حياة مرح وشقيقها يحيى إلى الأبد، فعندما كان والد مرح وزوجته يعودان من أداء مناسك العمرة تعرضوا لحادث سير مروع فقدت خلاله مروة والدة مرح حياتها على الفور، وأصيب والدها بجروح خطيرة جعلته يصارع الموت أسابيع ثم اللحاق بزوجته الحبيبة رفيقة الحياة والممات.

وهكذا بدأت حكاية مرح وشقيقها يحيى وهم يتحديان عواصف الحياة وحدهما، فهؤلاء الصغار أصبحا يتيمين دون سابق إنذار في عمر صغير جداً لا يتناسب مع مرارة الفقد ومعاناة اليتم.

عاشت مرح وشقيقها يحيى في منزل عمهما الذي تولى تربيتهما بعد فقدان والديهما، كان منزل عمهما مظلمًا ومهجورًا، ولا توجد فيه الكثير من الأصوات المبهجة التي يحبها الأطفال، كانت الغرفة الوحيدة المُسماة بغرفة الأطفال تفتقر إلى الألوان والدفء، فقد كان منزل العم يشير إلى الحالة المادية الصعبة التي يعيشونها فهم فقراء جداً، لهم ثلاثة من الأبناء بنت واحدة تدعى (سمر) وولدين اثنين (أحمد) و(أسامة) وهناك فارق بسيط في العمر بينهم وبين مرح ويحيى.

 كانت مرح ذات بشرة ناصعة البياض وعيون براقة تنبض بالحيوية والذكاء، وكانت تملك أطرافًا نحيلة ومرونة في حركاتها تعكس نشاطها الدائم وحماسها لاستكشاف العالم من حولها.

مع ذلك، لم تتأثر مرح ببؤس الحياة في هذا المنزل، كانت تمتلك خيالًا واسعًا وروحًا مرحة لا تعرف الحدود، كانت تجعل من كل شيء حولها مغامرة، وتحوّلت غرفتها المهجورة إلى قلعة ساحرة، وكانت تحاول دائماً أن تتجاهل الشعور الأليم الذي كانت تشعر به عندما ترى معاملة عمها لأولاده وحنانه عليهم وتلبية طلباتهم كما كان يفعل والدها في الماضي.

كانت كثيراً ما تتردد في طلب حاجاتها الأساسية من عمها لأنها تخجل منه وتعرف أنه سيرى أن أبناؤه أولى وأهم كما قالت زوجته في حوار دار بينها وبين زوجها ذات يوم.

علاوة على ذلك كانت تقهرها نظرة الناس لها ولشقيقها بشفقة وحملهما لقب (يتيم)، هذه الكلمة تتجرع مرارتها كل يوم وفي كل موقف تمر به، كانت تكره عيد الأم وتكره صديقاتها اللواتي يذهبن لشراء هدية للأم، فتراها تركض للمنزل تتكور في غرفتها وتحتضن وسادتها وتبكي بقهر وغصة شديدة، فقد حُرمت من حنان أمها في سن صغير، فهي لا تذكر سوى ملامحها وعدد من الذكريات البسيطة التي جمعتها بها.

وفيما يتعلق بيحيى فقد تأثر بفقدان والديه بصورة أكبر كونه كان أصغر عمراً من مرح شقيقته، فقد كانت عيناه تحمل آلامًا عميقة وهمسات صامتة من الحنين إلى الأيام التي كانوا يعيشونها سويًا كأسرة، ورغم أنه كان أصغر من مرح سناً إلا أنه كان يعتني بها بكل حنان وحب، ويحاول أن يكون الأب والأم بالنسبة لها، وتارة أخرى تمارس مرح دور الأم تجاهه من ارشاد وتوعية وتمنحه الحنان والاهتمام، ولكن في أعماق قلوبهما كان هناك شعور ثقيل بالحنين إلى العناق الدافئ للأم والأب، كانوا يشتاقون إلى الحضن المليء بالحب والأمان الذي لم يعد متاحًا لهما الآن.

كانت الليالي الطويلة تمر وهما يجلسان على سريرهما الصغير، يستمعان إلى صوت المطر يهطل خارج النافذة ويتذكران أيامًا كانوا فيها يجلسون في حضن أمهما وهي تحكي لهما قصص الأميرات والأبطال.

كانت السنوات تمر على مرح ويحيى كأنها دهر من العناء والتعب، سواء على الصعيد النفسي أو الاجتماعي، فكلنا نعرف معاناة اليتيم في مجتمعنا وكيف يصارع الحياة من أجل الحياة.

وصلت مرح إلى مرحلة التعليم الثانوي وكانت متفوقة جداً في دراستها، لم تكن مكلفة مادياً لعمها فقد كانت تساعد أبناء الجيران الصغار في حل واجباتهم المدرسية وتعليمهم أسس القراءة والكتابة مقابل مبلغ بسيط من المال يساعدها في شراء مستلزماتها الدراسية من كراسات ودفاتر وأقلام، فقد قررت مرح أن تقهر الحياة قبل أن تقهرها دون أب وأم تستند إليهما.

أما يحيى فلم يكن مهتماً بالدراسة كثيراً لأنه لا يجد دعماً من أحد سوى شقيقته مرح التي مازالت تحاول أن تجبره على النجاح في دراسته، ولكنه اختار أن يكون رجلاً ويتحمل مسؤولية نفسه فتراه يعمل في احدى الورشات من أجل توفير المال اللازم له ولأخته، فهو يرى أنها أحق منه بذلك.

عاد يحيى ذات يوم من العمل ودخل إلى غرفته التي يتقاسمها مع أولاد عمه أحمد وأسامة وهو في شدة تعبه واعيائه، وارتمى على فراشه وهو يئن من الألم وقد ارتفعت حرارته وبدأ يرتجف دون أن يشعر به أحد، وفي غفلته رأى والدته في المنام تقف عند رأسه وتبتسم له وتضع يدها على جبينه وتقول له: كن قوياً يا صغيري فنحن حولكم ونشعر بكم.

بدأ يحيى يبكي وهو نائم ومن ثم بدأ يصرخ: أمي، أمي أين أنت اشتقت لكِ؟!

فاستيقظ أهل المنزل على صراخه وتجمعوا حوله بما فيهم شقيقته مرح التي أخذت تهدئ من روعه وتطبطب عليه بيد حانية حتى هدأ ونام فعاد الجميع لفراشهم ما عدا مرح التي جلست بجواره تضع له الكمادات وتراقبه طوال الليل كما كانت ستفعل والدته لو كانت على قيد الحياة.

استمرت الحياة المريرة مع مرح ويحيى لمدة ثلاث سنوات طويلة بما فيها من صعاب، كبر الاثنان وكبرت معهما همومها التي خلفها اليتم وفقدان والديهما.

مرح كانت فتاة ذات عيونٍ ساحرة وابتسامة مشرقة، تنبض بالحيوية والطموح، لقد كانت السنوات الثلاثة الماضية من حياتها مليئة بالأعباء والتحديات، ولكن اليوم كان يومًا مختلفًا تمامًا.

في ذلك اليوم كانت مرح تجلس على حافة السرير وتحمل نتيجة امتحان الثانوية العامة في يديها، ترتقب بفارغ الصبر رد فعل عمها حول رغبتها الالتحاق بالجامعة واستكمال تعليمها.

فجأة.. فُتح الباب بقوة ودخل عمها (عبد الله) ذلك الرجل طويل القامة طيب القلب، والذي لم تر في وجهه سوى التجاعيد العميقة والحزن المكبوت، كانت مرح تعلم أن عمها يعاني من ضائقة مالية وحالة اقتصادية صعبة، وأن تحمل تكاليف الجامعة كانت حلمًا بعيد المنال ولن يستطع تحقيقه لها ولأبنائه في نفس الوقت، لقد كانت تريد أن تستمر في تعليمها وتحقيق طموحاتها، ولكن ظروفها كانت تتحدى إصرارها.

 **قالت مرح بصوتٍ خفيف**: السلام عليكم يا عمي، وكانت تحاول إخفاء حماسها وقلقها مما سيحدث بعد الآن.

"عليكم السلام، يا مرح"، رد عبد الله بصوتٍ هادئ، ولكنه كان مليئًا بالحزن والتردد.

ثم أخرجت مرح الورقة الصغيرة ونظرت إليها بقلق، لم يكن بإمكانها تحمل فترة طويلة من الصمت المحرج، فقد كانت تريد أن يشاركها عمها فرحتها وتفاؤلها بالمستقبل.

 **قالت مرح بصوتٍ مرتفع ووجه مشرق**: عمي، لقد نجحت في الامتحان وحققت الدرجة التي حلمت بها.

**عبد الله نظر إلى وجه مرح، وهو يحاول أن يخفي حزنه ويبتسم لها**: أنا فخور بك يا مرح، لقد بذلتِ جهدًا كبيرًا وحققتِ نجاحًا جميلًا.

مرح شعرت بالارتياح والفخر حين سمعت كلمات عمها، ولكنها كانت تعلم أن هناك شيئًا ما لا يزال يؤرق قلبه فقررت أن **تسأله بحذر**: عمي هل سألتحق بالجامعة؟؟

**أخذ عبد الله نفسًا عميقًا ثم قال بصوتٍ هادئ:** أنا آسف يا مرح وأريد منك المعذرة فليس لدي القدرة على تحمل تكاليف الجامعة لك ولابنتي سمر التي نجحت في الثانوية العامة هذا العام أيضاً وتريد الالتحاق بالجامعة، والأمور المالية صعبة جدًا بالنسبة لي في الوقت الحالي، ولكن لدي خيار آخر.

**مرح أحست بالصدمة والخيبة ولكنها حاولت الابتسامة رغم ذلك**: ما هو الاقتراح الذي لديك عمي؟"

**نظر عبد الله إلى مرح بعيون مليئة بالحنان وقال بصوتٍ هادئ**: " جئت لأخبرك أن هناك شاب تقدم لخطبتك اليوم وجئت لأخبرك، وأعتقد أن الزواج سيكون أفضل خيار لك وسوف تجدين فيه تحقيق أحلامك وستجدين من يضمن لك الحماية ويتحمل عنك أعباء الحياة.

**تجمدت مرح للحظة وخيوط الصدمة تتشكل حولها، ولكن سرعان ما عادت لتجمع شجاعتها وتواجه الواقع**: "عمي، أنا أقدر ما تحاول أن تفعله لي، ولكن الزواج لا يعني نهاية حلمي بالتعليم، أنا أريد أن أذهب إلى الجامعة وأتحصل على تعليم جيد وأصبح أقوى."

**أمسك عبد الله بيد مرح ونظر إليها بعيون مليئة بالفخر المختلط بالحزن والتأثر وقال**: يا عزيزتي إن كل فتاة في هذه الحياة مصيرها الزواج، وأنا أرى أنك عانيت بما يكفي وعليك أن ترتاحي الآن من هذه الحياة وأوجاعها، وصدقيني بعد فقدان والديك سيكون الزواج فرصة أفضل لتكوين أسرة وإنجاب أطفال تستعيدين معهم رونق الحياة وجمالها، سامحيني يا ابنتي ليس باليد حيلة، الزواج هو الحل وأفضل كثيراً من بقائك هنا.

قام عبد الله وترك مرح ابنة أخيه تضع يدها في كفيها وتبكي بحرقة على مستقبلها الذي باتت تحلم به ليل نهار، أخذت تفكر كم كانت ستكون أسعد لو أن والدها ووالدتها على قيد الحياة، كان والدها سيحفر الصخر حتى يحقق لها حلمها في التعليم الجامعي، لكن شاء القدر أن تكون يتيمة لا تملك حيلة سوى البكاء والقهر على نصيبها وحياتها التي توقفت منذ أن مات والديها.

كانت هذه الحياة قاسية على مرح وشقيقها منذ نعومة أظافرهم، ولكن هذا قدر الله الذي لا اعتراض عليه، ولكن المجتمع والحياة تطحن هؤلاء الصغار، فيعيشون حياة صعبة مؤلمة باردة المشاعر.

أما يحيى في الجانب الآخر مازال يعاني مرارة اليتم، لا يشعر بالراحة في منزل عمه ويشعر أنه غريب عنهم يقلقون من وجوده ويحتاطون الحديث أمامه عن حياتهم.

بدأ يفكر في الرحيل إلى مكان بعيد لا يعرفه فيه أحد وأن يبدأ حياته الخاصة بطريقته الخاصة.

ترك يحيى منزل عمه بعد زواج شقيقته مرح من شاب في المنطقة، وقرر أن يبحث عن منزل صغير أو غرفة يستأجرها ليعيش فيها وحده، كانت تخبره مرح بين الفينة والأخرى أنها غير سعيدة مع زوجها وأنها لا تعرف لمن تشكو همها وليس لها مكان تذهب إليه حينما تغضب من زوجها كما تفعل جميع الفتيات المتزوجات، لكنها تُصاب بغصة في القلب حينما تتذكر أنها يتيمة الأم والأب.

 كانت الأيام المريرة التي عاشتها اليتيمة مرح وشقيقها يحيى تتوالى، فقد ضربتهم مصيبة أخرى لا تُحتمل، حيث أصيب يحيى بمرض خطير أشعل القلق والحزن في قلوبهما.

تدهورت حالة يحيى بسرعة، وتحولت الأمسيات المليئة بالضحك والمرح إلى أوقات من الصمت القاتل، كانت مرح تحاول جاهدة أن تكون قوة داعمة لشقيقها، لكنها لم تستطع إخفاء حزنها العميق وهي ترى يحيى يتدهور يوماً بعد يوم.

مع مرور الوقت، أصبحت مرح تعلم أن يحيى لن يستعيد صحته، كانت تدرك أنها تودعه ببطء وتشهد تلاشيه أمام عينيها، كانت اللحظات الأخيرة تقترب ببطء، وكانت مرح مستعدة للوقوف بجانب شقيقها حتى النهاية.

في يوم من الأيام، وبينما مرح تمسك بيد يحيى المتضعضعة، توقف نبض قلبه فجأة، انصرعت من شدة الصدمة ولم تستطع حتى أن تبكي أو تصرخ، فبعد طلاقها من زوجها الذي كان يعايرها بأنها يتيمة ويقسو عليها كثيراً عادت لتعيش مع أخيها في بيته الصغير فهو شريك حياتها الوحيد وسندها بعد الله دون أمها وأبيها.

بعد وفاة يحيى، ظلت مرح تعيش في حزن عميق وحيدة، فقد فقدت عاشت حالة الفقد واليتم مرة أخرى بوفاة شقيقها وهو في مقتبل عمره، مات بائساً مقهوراً لم يرى قلبه الفرح يوماً واحداً، تركزت حياتها على الاشتياق لأيامهما الماضية وعلى الذكريات الجميلة التي شاركتها مع يحيى شريكها في الفقد والألم واليتم، لكنها الآن لن تجد من يشاركها حتى في ألمها وستبقى عالقة في فجوة الزمن تنتظر أن تلحق بمن رحلوا.